العرب
السبت 2021/10/09
السنة 44 العدد 12204

ألم ينته عصر القذافي؟

فاروق يوسف
كاتب عراقي

يتردد اسم سيف الإسلام القذافي كما لو أنه وارث عصر عظيم. حديث ملغوم هو مزيج من الحيرة والاستفهام والعجز ولا يخالطه شيء من الندم يتم تداوله كما لو أنه نوع من السخرية السوداء.

"لقد فشلنا" ذلك مؤكد. ولكن هل كان القذافي ناجحا عبر أربعين سنة من الهذر والهدر والخيلاء الفارغة والجهل والغرور وصبيانيات السياسة التي كانت تكلفتها باهظة. فمَن هي ليبيا حتى تدفع تعويضات لضحايا طائرة لوكربي؟ ألم يكن الشعب الليبي أولى بتلك المليارات التي لم يشتر العقيد عمره بها بل قرب من خلالها أجله؟

يضحك نيكولا ساركوزي في سره من العدالة التي ارتضت لنفسها أن تساهم في مقتل مموله الليبي وهي اليوم إذ تغمض عينا وتفتح الأخرى فهي لا تشعر بالحرج. ذلك لأن كل شيء في تلك البلاد لا يشير إلى أن أحدا من ذلك الشعب سيتحدى العدالة مطالبا بكشف الحقيقة.

الحديث عن عودة سيف الإسلام القذافي إنما هو غطاء لفشل جديد ودليل على ما كان والده قد انتهى إليه في آخر خطاباته حين أقر بأن الشعب لم يكن إلا مجموعة من الجرذان

الحقيقة التي يعتبرها ساركوزي من مقتنياته تؤكد أن زمن القذافي قد انتهى وكل ما يمت بصلة إلى ذلك الزمن ينبغي أن يطويه النسيان. أما الليبيون فإنهم يفكرون بطريقة مختلفة. طريقة هي من صنع العقل الذي اعتقد أن الفوضى هي سيرة حياة سوية. ففي عصر القذافي لم تكن هناك دولة حديثة حقيقية. كانت هناك إقطاعية اسمها الجماهيرية. وكان هناك حزبيون من غير حزب يمارسون الرقابة على كل شيء باسم المؤتمرات الشعبية التي هي عنوان الفوضى أما جوهرها فإنها تتمثل بالعصا التي أمسك بها القذافي يوم تُوج ملكا لملوك أفريقيا.

هل كان على الليبيين أن يُحكموا بالفشل لو لم يرس القذافي قواعد ذلك الفشل في الحياة اليومية؟ فمثلما ألغى الدولة فإنه عطل الشعب. حذف الاثنين من مفكرته الشخصية. كان يعرف أن ليبيا من بعده لن تكون دولة. رأى صورة ليبيا في المستقبل. ليس لأنه يتمتع بقدرات العرافين بل لأن مادة ذلك المستقبل كانت من صنع يديه.

إن أكل الليبيون بعضهم البعض الآخر، فلأنهم لم يعترفوا بجوعهم إلى المعرفة. معرفة كيف تكون الدولة الحديثة؟ ما شكلها وما محتواها ومَن هي القوى التي يجب أن تساهم في بنائها؟ فليس كل مَن جمع من حوله مجموعة من شذاذ الآفاق والمشردين والمرتزقة يصلح أن يكون طرفا في حوار وطني يُراد منه إنشاء دولة من العدم. ولا يملك سيف الإسلام موهبة سوى تلك التي تضمه إلى محتكري السلطة وسارقي الثروة ومخربي العقد الاجتماعي وناسفي أسباب الحياة السوية بصيغتها الحديثة.

ينبغي أن لا يُظلم الرجل. فهو ليس وحيد زمانه. لا يزال العالم العربي يزخر بالمواهب التي يهمها أن لا تكون هناك دولة وأن يوضع الشعب في خدمة العجلات التي تدوسه من أجل أن تستمر المسيرة التي لا يعيقها استلاب الكرامة الإنسانية. الأمثلة على ذلك كثيرة. حسن نصرالله، راشد الغنوشي، نوري المالكي، عبدالملك الحوثي وهم ليسوا سوى أقزام أمام العباقرة الكبار. صدام حسين، حافظ الأسد، علي عبدالله صالح ومعمر القذافي.

ليبيا ترى أنها في حاجة إلى موهبة سيف الإسلام القذافي. ذلك يذكر بما قاله البعثيون بعد أن تأكدوا من أن الغزو الأميركي قد محا سلطتهم وبشكل لا رجوع فيه "سيعودون إلينا لأننا الجهة الوحيدة التي يمكنها أن تحكم الشعب العراقي وتتمكن من تليين عريكته وإذلاله وإخضاعه". لم يكفهم أنهم أخضعوا ذلك الشعب المسكين أكثر من ثلاثين سنة لمزاجهم الحزبي الذي تميز باستهتار بالقيم الإنسانية لا مثيل له.

على خلاف ليبيا فإن العراق لم يتخل عن الدولة التي تم إسقاطها من قبل الأميركان. تلك الدولة كانت من صنع العراقيين وإن سعى صدام حسين لأن يُضفي عليها طابعه الشخصي. لم تكن سنوات الحصار الدولي الذي فرض على العراق عام 1990 إلا تكليلا لفشله الشخصي الذي قاومه عن طريق استعراضات لم تكن نافعة. في النهاية فإن الرجل لم يترك ذكريات حريرية بالرغم من أن نزاهته قد وهبت العراق في سبعينات القرن العشرين وثمانيناته مكتسبات حضارية على مستوى التعليم والصحة والمواصلات والاقتصاد يحلم بها مواطنو دول العالم الثالث.

الحنين إلى الماضي لا ينفع في شيء. قد يكون سببا مضافا للضياع. لذلك فإن الحديث عن سيف الإسلام القذافي إنما هو غطاء لفشل جديد. لا بأس من إعادة الاعتبار إليه باعتباره مواطنا ليبيا. أما أن يكون هو الحل فذلك دليل على ما كان والده قد انتهى إليه في آخر خطاباته حين أقر بأن الشعب لم يكن إلا مجموعة من الجرذان.

هل نحن في حاجة إلى العودة إلى عصر الجرذان؟

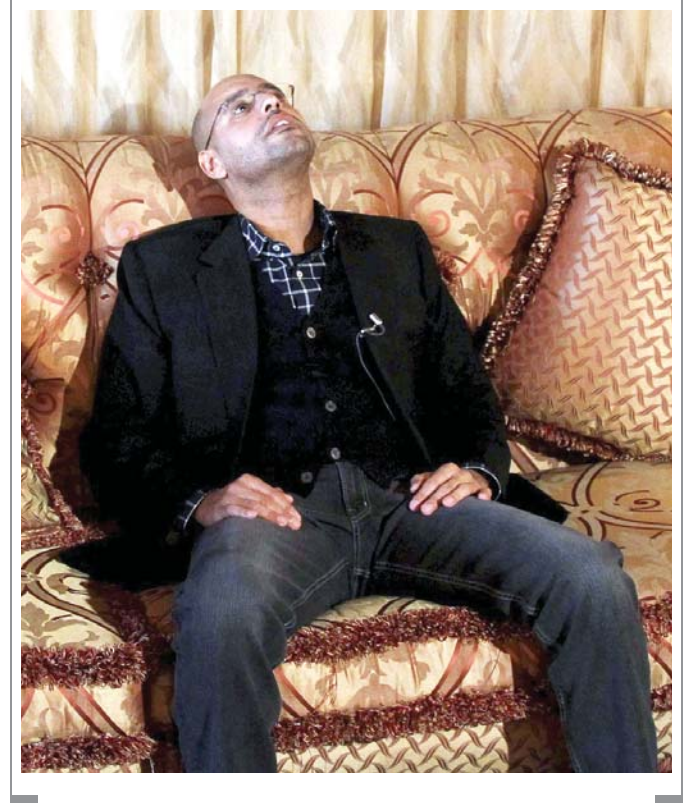

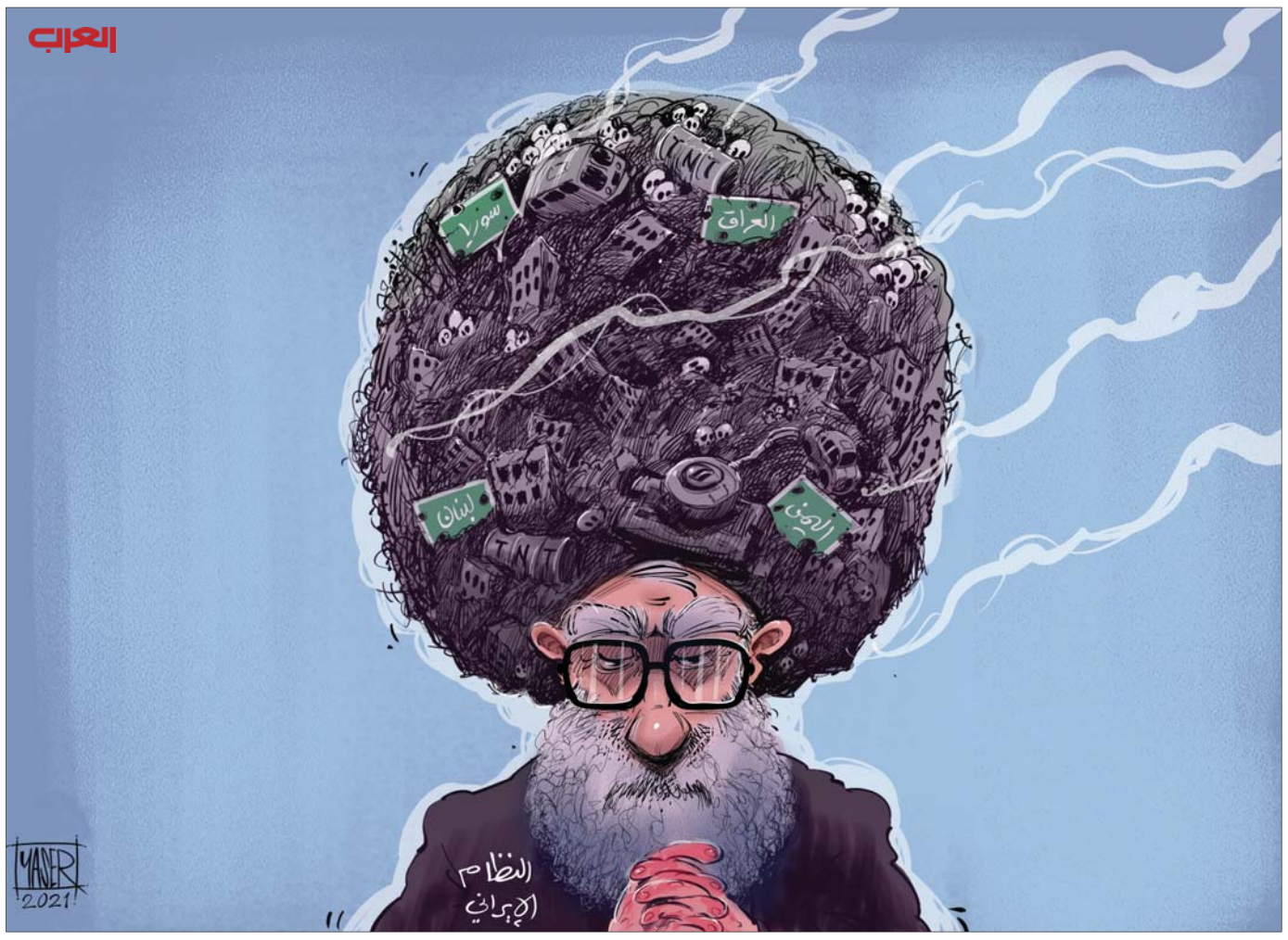

ما الذي يُخيف إيران؟

علي الصراف
كاتب عراقي

لم تعثر إيران على مَنْ يشكل تهديدا حقيقيا لها، فصارت تبحث عن أشباح تخترع وجودهم في أذربيجان.

حاول وزير الخارجية الإيراني الجديد حسين أمير عبداللهيان أن يظهر وكأنه يفهم في "الجيوسياسة"، فقال إن بلاده "لن تسمح بأي تغيير جيوسياسي في المنطقة". وسبقه وزير الدفاع الإيراني في فهم "التغيير الجيوسياسي"، بأن حرك عدة ألوية مدرعة ودبابات وطائرات لإجراء تدريبات على مقربة من الحدود الأذرية. وكلاهما تعرّف على المصطلح عن طريق "تويتر".

الرئيس الأذري إلهام علييف قال في نفيه للأوهام "الجيوسياسية" الإيرانية "لا يوجد أحد هنا. ولا توجد حتى منشأة سكنية، فأنا على حدود نهر أراز الآن، فهل تثبت لنا إيران، أين ترابط إسرائيل في هذه المنطقة؟".

وحده الرد الساخر من السفير الإسرائيلي في موسكو ألكسندر بن تسفي كان كافيا عندما وصف المخاوف الإيرانية بأنها "هراء كبير"، واعتبر الأمر مجرد "تخيلات" قائلا إن بوسع الإيرانيين الزعم أيضا "أن هناك كائنات من المريخ موجودة في قرة باغ".

المسألة الحقيقية لا تكمن في أن إيران تريد أن تبيع نفطها الرخيص في أذربيجان عن طريق شاحنات (وهو أمر يشبه بيع الماء في حارة السقايين) مما اضطر باكو أن تفرض عليها ضرائب مضاعفة. كما أنها لا تكمن في ثقافة عبداللهيان السطحية عن "الجيوسياسة"، بل لأن إيران تريد أن تستعرض عضلاتها حيال أي أحد، حتى ولو كان مجرد أشباح، من أجل القول إنها هي "القوة الضاربة" الوحيدة في المنطقة.

بالتأكيد لا يوجد تهديد أذري لإيران. ولا تهديد إسرائيلي ينطلق من أذربيجان. وإذا كانت طهران تخشى من وجود إسرائيلي هناك، فالحقيقة هي أن إسرائيل موجودة في طهران أكثر مما هي موجودة في قرة باغ.

في هذه المدينة المتنازع عليها بين أرمينيا وأذربيجان يوجد بين كل جندي روسي وآخر، جندي تركي وآخر. بينما يوجد في طهران بين كل إيراني وآخر من يمكن لنظام الولي الفقيه أن يعتبره عدوا. أما إسرائيل فلديها أعوان من داخل النظام نفسه.

ولكن هل تمارس إيران مع نفسها الأوهام بالبحث عن أعداء؟ ليس بالضرورة. صحيح أن الهستيريا بضاعة سائدة، حتى ليمكن القول إنها ثقافة يتم تجديدها سنويا مع اللطميات الحسينية، إلا أنها في قضايا "الجغرافيا السياسية" كلما حاولت أن تلتفت لتبحث عن عدو يشكل تهديدا لها لم تجده.

العراق كان هو الطرف الإقليمي الوحيد الذي يمكنه كسر شوكة العدوان في إيران. وبعد ضياعه لم يبق هناك أي تهديد آخر.

المزاعم القائلة إن إسرائيل هي التهديد، قصة تذكرني بالصحافي الشهير سيمور هيرش الذي قضى أكثر من عشرين سنة من عمره بين صحيفة "نيويورك تايمز" ومجلة "نيويوركر"، وهو يبيع خرافة أن إسرائيل أو الولايات المتحدة أو كلاهما معا ستوجهان ضربة لإيران. وكانت تلك القصة مجزية فعلا. على الأقل لأنها صنعت صحافيا يبيع الأوهام ويحظى بالشهرة.

الإسرائيليون التقطوا القصة، فصاروا يبيعون الخرافة ذاتها، إنما على مستوى تجاري أوسع، بحيث لا يمر أسبوع إلا وتكون هناك تصريحات جديدة عن استعدادات لتوجيه ضربة عسكرية لإيران. حتى أن ما لا يقل عن خمسة وزراء دفاع، على امتداد كل سنوات هذه التجارة المجزية، قالوا إنهم أعدوا خططا لتلك الضربة، ثم عادوا للقول إنهم أعدوا خططا أخرى، وهكذا. ومرة بعد مرة، يتضح أنهم نسوا أنهم فعلوا ذلك عشرين مرة على الأقل.

الولايات المتحدة، بكل جبروتها العسكري تنسحب من أمام إيران. في العراق أو مياه الخليج، لا تطلب الولايات المتحدة سوى أن تحافظ على بقاء رمزي لا يشكل تهديدا حقيقيا.

وهناك ما يبرر الاعتقاد بأن الصلات غير المعلنة بين الطرفين توفر لإيران الطمأنينة الكافية بأن الوجود الأميركي في المنطقة لا يشكل تهديدا لها، وأنه وجود دفاعي محض.

الوحيد الذي كان بوسعه أن يسحق نزعة العدوان في إيران هو العراق. 1458 كم من الحدود المشتركة، و5000 سنة من المرارات التاريخية، و1388 سنة من ورطة الفتح الإسلامي لإيران، و520 سنة من المرض الصفوي الذي ظل يتفشى كتهديد داخلي، والملايين من القدرات البشرية، والإمكانات العسكرية التي استخدمت كل شيء، بما في ذلك كل صفيحة معدنية لكي تحولها إلى صواريخ، هي التي وفرت الإرادة والحوافز والأدوات على مواجهة حقيقية وشاملة.

الإيرانيون هم القوة الوحيدة التي يمكنها أن تناظر قوة العراق في مواجهة نظام الولي الفقيه إنهم 82 مليون مقهور ودفعوا 42 سنة من حياتهم بين الفقر والبطالة والتضخم والحروب والأمراض

لا يوجد شيء من هذا القبيل على أي جبهة أخرى مع إيران. وإيران تعرف ذلك، ولهذا السبب، فإنها تتصرف كقوة تهديد لا يضارعها أحد. حتى أنها عندما لا تجد تهديدا، فإنها تخترعه.

التغييرات في "الجغرافيا السياسية" لا تحدث في الخفاء. هذا ما لا يفهمه عبداللهيان بثقافته التويترية. ولا تقوم بها أشباح. إلا أنه يطلق "الكلام الفخم" من ناحية لكي يظهر وكأنه "فهمان"، ومن ناحية أخرى لكي يُضخّم توجهات رئيسه إبراهيم رئيسي. وهذا الأخير ليس بأفضل منه حالا.

السؤال الذي يتحدى قدرات الجميع على التأمل هو: كيف يمكن مواجهة هذا الوحش من دون أن يشعر بالخطر "الجيوسياسي"؟

الجواب بسيط. الإيرانيون أنفسهم. هؤلاء هم القوة الوحيدة التي يمكنها أن تناظر قوة العراق في مواجهة نظام الولي الفقيه.

إنهم 82 مليون مقهور. ودفعوا 42 سنة من حياتهم بين الفقر والبطالة والتضخم والحروب والأمراض. وبينهم أقليات تعاني التمييز والحرمان، بل وتواجه حرب إعدامات لم تقتصر على مجزرة العام 1988 التي أبادت أكثر من 30 ألف ضحية في غضون بضعة أيام. فالمجزرة مستمرة، وتلتهم كل يوم ضحايا جددا.

هذه القوة، ليست من دون سلاح. وتستطيع أن ترفع السلاح. وهي قوة تغيير يمكنها أن تنقذ المنطقة ليس فقط من التهديدات، بل ومن تجارة الأوهام أيضا.

إنها قوة تجمع بين كونها قوة عفوية، وبين كونها قوة منظمة. وعناوينها معروفة. ودول المنطقة التي تعاني من التهديدات لا تحتاج من يدلها عليها.

يمكن للمرء أن يكون على يقين من شيء واحد على الأقل. هو أنه كلما انحدرت ثقافة عدوك، لتبلغ مستوى السخف الذي يمثله رئيسي وعبداللهيان، كلما زادت المخاطر والتهديدات.

إنهما يُظهران الشراسة مع الأشباح، لكي يقولا لمحيطهما "الجيوسياسي": سنضرب أنّى نشاء، وكيفما نشاء.

والصواريخ والطائرات المسيرة ضد السعودية، "رايح جاي"، على أي حال.